لكي لا يبتلعنا التيار !

بقلم الدكتور ميشال سليمان

لعله كان في مثل حالنا ذلك الشاعر الذي قال :

« غصنا في ابحر ثلاثة
وتقلينا في قدور ثلاثة
وانغمسنا في دماء ثلاثة
فنحن بين الطاهرين طهارى » .

وهل ثمة مطهر للشعوب ، تلقي فيه بادرانها ، فتطهر من وهنها وضعفها ، انظف من ابحر ثلاثة ، تغوص في لججها ، تصارع حيتانها ، وتطفو على تبجها شماء الانوف ، ووجهتها شاطيء الامان ؟

وهل ثمة حومة للشعوب ، تتبارى في دوامتها مع قوى البغي والعدوان ، اقدر على الخلاص من قدور ثلاثة ، تتقلى بزيتها اللهاب ، وتعاول فقاقيع غليانها ، حتى تخرج من قلب السعير وكأنها سعير بألف رجل وساعد من نار ؟

وهل ثمة افوز في البذل حظا من الدماء ، تريقها الشعوب على ثراها الجديب ، فتتململ في ثناياه البذور الهاجعة ، وتتفتق ارحامه عن خصب وعطاء جديد ؟

تلك اطوار الاقدار في حكم مسيرتنا المصيرية ، جبهتنا بكل ما في اكفها من عسف وجبروت ، فجبهنا لها طرح العزيمة ، واشرعنا في وجهها درق الزيف المصدور . ولما جاء دور تصنيف المغانم والمغارم ، انبرت لنا الاصابع الهزيلة المسلولة ، اياها ، تخط شعارات البلاسم العجفاء ، وترفعها في وجوهنا سترا لعار لحق بنا فمحق ، واخفاء لحفنة من خمير يتململ في العجين الكبير ، ولن يلبث حتى يطلع علينا ، برغم كل الاحزمة ، بالخبز المريء .

فمهما قيل في الحدث الذي حصل في عالمنا العربي ، لبضعة اسابيع خلت ، لن يبدل من واقع كوننا عشنا من عمرنا المديد ، لحظة بدعا كانت ، وايم الحق ، نقطة سوداء في صفحة تاريخنا الضخم ، حكومات ، وشعوبا ، وغالبية قادة وزعماء .

واليوم ، والفلة لما تزل ملقاة على اكثر من بيدر ، يجدر بنا ان نقيم الميزان ، لنعرف مدى ما جنينا خلال مرحلة من الزمن امتدت حتى بلغت ربع قرن ، او تكاد . ولكي يستقيم لنا المعيار ، لا بد لنا من القاء نظرة عجلى على ما طوينا من حواشي طريقنا الطويل ، لعلنا نرى في غضونه ومنعرجاته ما يكشف لنا بعض العرج الذي اصابنا ، وبعض الهزال الذي تمكن منا ، وبعض النفاق الذي حمل في احايين ، وفي مقدمة الركب ، لافتات الشعارات المضللة ، ايهاما للجماهير العربية المناضلة من اجل غد افضل ، انها سائرة الى اهدافها بيقين وعزيمة لا تني .

ولعل افدح ما يراود الاذهان اليوم ، الاعتقاد بان العدوان الاسرائيلي الذي استشرى على البلدان العربية في الخامس من حزيران الماضي ، هو ابن يومه ، او بعض عمره في ابعد تقدير . فالعدوان الاسرائيلي على شعوبنا العربية ظهرت بوادره يوم اخذت الدول الاستعمارية في مستهل هذا القرن تمهد للاستيلاء على ثرواتنا البترولية ، والتمركز في منطقتنا بوصفها موقعا استراتيجيا هاما في منعطف ضخم من كل القارات .

وقد اخذ هذا النهم الاستعماري يتضخم ويرتدي في كل طور رداء جديدا ، حتى كان وعد بلفور المشئوم ، الذي دفع بالقضية الصهيونية الى صعيد التحرك العملي ، بعدما عاشت مدة طويلة تخطط للجريمة المبيتة بحق شعب كل مصيبته انه كان ضحية فقر مادي ومعنوي ، وقربان خيانة سوداء تأنف ان تنعت بها اقذر قملة .

والواقع ان الدول الاستعمارية ظلت تنطلق بالقضية الصهيونية صعدا الى ان وجدت لها تعبيرا عمليا في دولة اسرائيل ، في اللحظة التي كانت فيها الحكومات العربية غارقة في مستنقع التبعية يتأكلها الجهل والعمى السياسي ، وتنخر في اصلابها ديدان الرجعية ، ويسوق فيها الطغيان قوافل الاحرار بعصا الاجنبي الدخيل ، والمواطن العميل .

وعندئذ لم يكن بد من قيام تحول في خريطة الاتجاه السياسي العربي لما لوحظ من استشراء الدول الاستعمارية ، التي انبرت تحيك المشاريع والاحلاف العدوانية لتحول بواسطتها دون تقدم الشعوب العربية ، ولتجعلها بشكل دائم ضمن مناطق النفوذ . وكان من سخاء مرحلة قصيرة من التطور السياسي في عالمنا العربي ، ان حصلت النتائج الثانية :

- انخلعت الملكية في مصر ، وقامت جمهورية تنادي بالسلام والحياد .
- كثرت مشاريع الاحلاف الاستعمارية .
- قامت المظاهرات الجماهيرية الضخمة في كل
- بدأت الانقلابات العسكرية في سوريا .

العواصم العربية تنادي بعدم الانحياز .

● شقت الدول العربية المتحررة ـ مصر وسوريا ـ طوق الاستعمار واخذت السلاح من الدول الاشتراكية .

● نشبت الثورة اللبنانية ضد مبدأ الانحياز .

● تهدمت الملكية في العراق وقام الحكم الجمهوري.

● قامت الجمهورية اليمنية .

● امممت قناة السويس .

● حصل العدوان الثلاثي على مصر ، ثم انحسر بفضل الاتحاد السوفياتي .

● قامت الوحدة بين مصر وسوريا .

● نكب الشيوعيون العرب على يد القادة العرب .

● طلعت جبهات سياسية عربية اطلق عليها اسم « اليسار » .

● نشبت خلافات على صعيد الحكومات العربية

● انفكت الوحدة بين مصر وسوريا .

● استمرت الخلافات العربية ، وما زالت حتى اليوم ، واغلب الظن انها لن تتوقف بغير انتصار قوى التقدم على الرجعية .

والحق ان هذه الاحداث كانت من الخطورة بحيث لم يبق مواطن عربي بمعزل عن مجرياتها . وعبر دوامة هذه الاحداث المتكدسة على صعيد الواقع العربي ، كانت الدول الاستعمارية ، وفي طليعتها الولايات المتحدة الاميركية ، تمعن في توطيد كيان اسرائيل كوجود لها مصغر ، تنطلق منه للايقاع بالدول العربية ، وجعلها ضعيفة متخلفة ، غير مستقرة ، وفريسة الاحتكارات الاميركية والانكليزية والالمانية .

وهنا تجدر الملاحظة ان الدول العربية ، والمتحررة منها بنوع خاص ، كانت حتى عشية العدوان الاسرائيلي ، تفرق بين هذا الوجود المصغر للاستعمار الذي اسمه اسرائيل ، وبين اسرائيل ذاتها ، فتحاول تارة بالاساليب السياسية المألوفة ، وتارة بالجهل النشيط ، ان تكسب شيئا من عطف الولايات المتحدة الاميركية عن طريق التصريحات الباسمة والكلمات المزهرة ، بحيث فاجأها العدوان وهي تكاد تكون في غفلة من امره وامرها ايضا ، فقامت في غفلة النوم السياسي تنادي بعظائم الامور . وقد ابصرت ، بالتالي ، بكل حواسها ان الولايات المتحدة الاميركية ، وحلفاءها ، قد امدت اسرائيل بجميع المساعدات القمينة بتحقيق النصر على العرب ، بغية فرض شروط الصلح فيما بعد ، وتوطيد كيان القاعدة الاستعمارية ـ اسرائيل ـ ، كما انها ابصرت بالمقابل ، ان ليس لها من حليف أو صديق يدعمها بالسلاح وفي المحافل الدولية سوى الاتحاد السوفياتي وجميع البلدان الاشتراكية الاخرى .

وهنا لا بد لنا من ان نطرح السؤال التالي :

« لماذا منيت الدول العربية ، والمتحررة منها بوجه خاص ، بهذه « النكسة » الشنعاء التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الهزائم ؟ » .

الجواب على هذا السؤال يستلزم بالضرورة الصراحة التي ترادف الحقيقة . وهذا لعمري مما لم يتعود الدارسون اعلانه في عصرنا هذا لاسباب منها معلوم ، ومنها مجهول بالنسبة لفئة كبيرة من المواطنين العرب .

اننا منذ عدة سنوات نقول بوجوب احداث تبديلات في القيادات العربية ، على صعيد الحكومات والهيئات والاحزاب ، لانها على ما يبدو ، استنفدت الغايات التي جاءت من اجلها ، او كادت ، واصبحت متخلفة بالقياس للواجبات والمتطلبات التي تفرضها روح المرحلة التاريخية التي تجتازها الشعوب العربية المناضلة من اجل غد افضل .

وهذا لا يعني ان القيادات تلك القت راية النضال الوطني ، وتشبثت بأوهامها القيادية وحسب ، بل ان ثمة طبقة جديدة نشأت في العشرينات الاخيرة من هذه المرحلة التاريخية ، وتبلورت على صعيد النضال الوطني ، واكتسبت من انفعالها بمحك العمل التجريبي انها بحاجة الى قيادات جديدة نابعة من ذاتها ، تأخذ مصالحها بعين الاعتبار ، وتتفاعل واياها بوصفها حلقة من حلقات النضال ضد الاستعمار بجميع اشكاله ، وان كل انتصار تحرزه انما هو انتصار على الاستعمار ذاته ، وان كل هزيمة او نكسة تمنى بها تشكل انتصارا للاستعمار على الصعيد العالمي ، لا على الصعيد المحلي وحسب .

ترى ، هل حصل شيء من هذا ؟

هل قامت في احد البلدان العربية المتحررة حركة تطالب برفع النضال الوطني في الداخل الى مستوى النضال الاممي ضد الاستعمار ؟

وهل وفقت بالمقابل ، بين نضالها الاممي وبين نضالها الوطني ؟ الا في الندرة النادرة من المواقف التي كانت تفرضها الشروط الذاتية للمعارك النضالية .

وان قامت مثل هذه الحركة ، فهل افسح لها مجال التعبير عن مقاصدها واهدافها ، ام وئدت في مهدها مخافة « الفضيحة » التي ستخلفها ، على نحو ما كان اجدادنا العرب يئدون بناتهم مخافة جلب العار ؟

ان شيئا من هذا لم يحدث ، وان حدث فلكي يظهر موسميا ويذوي في مطلع الموسم الذي يلي ، لتحل محله العبارات الثورية الطنانة التي تفقد معناها منذ ما تبين استحالة وضعها على محك العمل التجريبي والتنظيمي .

وقد كان هم الحكومات العربية المتحررة ، يدور حول البناء الاشتراكي ، والعمل الاشتراكي ، والتدابير الاشتراكية ، كل ذلك بمعزل عن الاشتراكيين الحقيقيين الذين كانوا وما زالوا يناضلون لذات الاهداف التي تناضل من اجلها الحكومات العربية ، اياها ، وبكل ما ملكت ايديهم من وسائل .

وكانت الحكومات العربية تنادي بالبناء السياسي والفكري والاجتماعي المتحرر ، والاشتراكي في اغلب الاحيان ، وليس لديها اي منهج علمي ليستقطب السياسة والفكر والاجتماع جميعا .

وكانت الحكومات العربية ، اياها ، تقول بالتطور الاقتصادي الاشتراكي ، ولم يكن لديها اي تصميم علمي يخرجها من دوامة اخر معطيات الانظمة الفردية المتمثلة براسمالية الدولة وبعض التأميمات التي تفرضها مراحل نمو القطاع العام الذي بين يديها .

وكانت الحكومات العربية تجاهر بتعبئة الجماهير وتنظيمها لكي تضعها في مكانها من معركة البناء الاجتماعي ، ولكنها بالمقابل تسلم قيادها الى عناصر مشبوهة رضعت لبان كراهية الجماهير والديموقراطية والحرية .

وبكلمة اخرى ، كانت الجماهير العربية اكثر ثورية من حكامها وقادتها في احايين ، بحيث كنا نرى هذه القيادات تبذل قصاراها للجم الجموح الشعبي دون محاولة توجيهه وتعبئته لكي يقوم بدوره التاريخي في تحويل المجتمع .

ولهذا ، كانت النكبة الحالية الناجمة عن العدوان الاسرائيلي فادحة وعميقة حتى العظم . وقد تكشفت عن اشياء في اعلى درجات الخطورة ، نوجزها بما يلي :

١ ـ الدول العربية مجموعة متنافرة الاهداف .

٢ ـ لا وجود لمثل اعلى واحد تناضل من اجله مجتمعة .

٣ ـ تفتقر الى التعبئة والقيادة البعيدة النظر .

٤ ـ معظم القوى المحاربة اظهرت انها عاجزة ، يتآكلها سوس الانتهازية ويشلها عفن العفوية .

٥ ـ ظهر من خلال جلسات مجلس الامن وجمعيته العمومية ان لا قيمة لما يسمى بالحياد الايجابي ، وعدم الانحياز .

٦ ـ ظهرت الدول الاشتراكية على انها هي وحدها الملاذ الوحيد الذي يمكن للدول العربية ان تلوذ به ، وتفزع اليه ، وتعتصم بحبل قوته كلما هبت عليها رياح الاستعمار .

٧ ـ كشفت اطوار النكبة عن زيف المقالات الطوال، والتقارير الرسمية ، كما كشفت ايضا خنوع وانتهازية العديد من الجهات التي وضعت نفسها في موضع القيادة والتنظيم ، متخلية بذلك عن دورها النضالي التاريخي ، توجيها ، ونقدا بناء ، ووقوفا في خط النار دونما تبعية وبغير استسلام .

٨ ـ ان العرب عاجزين عن ان يستخدموا كل طاقاتهم المادية والمعنوية في الدفاع عن حقهم في الحياة والمصير .

٩ ـ ان الحرب تفرض وجوب التمرس باستخدام السلاح واتقان اساليبه الحديثة .

١٠ ـ ان اكثرية الادباء ، وقادة الفكر ـ وخاصة في لبنان ، وقد ظهر ذلك خلال الاجتماعات والمؤتمرات التي نظمناها وعقدناها في بيروت ـ كانوا على هامش القضية منذ نشوئها حتى اليوم . ولما انفجرت في وجوههم ، وقفوا منها موقف الخائر المصعوق .

ورب قائل يقول : هذه حقائق فيها من الواقع ما فيها من بوادر الاعجاز في حله . واجيب : بأن المكاشفة والصراحة اخلص ما نعتصم به في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ تطورنا العام . وان من كتم علته ، قتلته . فلا حياء في العلم .

ان هيئات ثورية بحجم المصير لا يمكن بناؤها وحصحصة اسسها الا على صعيد الانتقاد البناء . اما اولئك الذين قضوا ردحا من الزمن يسودون الصحائف بالمقالات الثورية الراعدة ، ويتبعقون على وجوه الجرائد ، هنا وهناك ، بالنصائح تارة ، وبالوعظ البليد تارة اخرى ، فحري بهم الان ان يتواروا عن مسرح الاحداث ، لانها تخطتهم ، فهم منها في مثل ما يكون الفريق من تقلب التيار .

اما نحن ـ حكومات اولا ، وشعوبا ـ فأمامنا الفرصة الكبرى لمسح وعثاء النكبة عن جباهنا ، والنهوض من الكبوة لاستئناف مسيرتنا الطويلة . ولهذا ، نحن بأمس الحاجة الى قيادات تكون من زمننا ولزمننا ، لا متخلفة بمعنى الجاهلة ، ولا مستقبلية بمعنى الطوباوية ، ترتفع بالقضية الى مستواها التاريخي ، على انها ليست معركة بين دول عربية وبين اسرائيل ، وانما هي معركة بين الشعوب العربية وبين الاستعمار ، وانها جزء من المعركة الكبرى التي تخوضها الشعوب اليوم من اجل حريتها واستقلالها الوطني . وان كل انتصار يحرزه الاستعمار

ـ التتمة على الصفحة ٩٨ ـ

قريبا :

الشوارع العارية

واحدة من اروع الروايات الايطالية المعاصرة

تأليف

فاسكو براتوليني

ترجمة ادوار الخراط

منشورات دار الاداب

تتمة : لكي لايبتلعنا التيار

على شعب ما ، هو انتصار على شعوبنا بالذات ، وان كل انتصار نحرزه على الاستعمار يشكل بحد ذاته انتصارا على الاستعمار في كل جبهاته .

واما سبيلنا الى ذلك ، فمنهج ، في اعتقادي ، عقلاني و رافدين اثنين يتمثلان باسلوبين للعمل والتفكير .

الاول : يقوم على اعتبار الشعب هو القائد ، وهو الجندي ، وهو المبتدا والخبر من كل حدث يستشرف صيرورة ، ومن كل صيرورة تقدم لطور تطوري جديد . ومن هنا وجوب تنظيمه وتفتيح طاقاته جميعا .

والثاني : يقوم على منهج علمي ، يقضي على الطوباويات والغيبيات عن طريق التصميم القادر النابع من نظرة صحيحة الى العالم ، تمثل مجمل المفاهيم عن الحياة، عن العالم كله ، عن ظاهراته واحداثه ، وتحدد موقعنا من العالم لكي نؤثر في احداثه ، ونسهم في نضاله التحرري.

وهذا ، لعمري ، لا حدوث له الا بتبني وانتهاج مبدأ الاشتراكية العلمية . ان شعوبا كثيرة في العالم ، ونحن منها ، تناضل الاستعمار لتبني حياتها وتقرر مصائرها . وهي لن تجد في طريقها الانتصارات العظيمة وحسب ، بل ستجد ايضا صعوبات النمو اليومي . وفي هذه الظروف لا بد من معارف عميقة ملموسة يعطيها العلم المعاصر . فالاعمال والمنجزات العظيمة تقتضي اعظم الطاقات ، طاقات الشعب بأسره . وبدون الايمان المطلق بعدالة المثل الاشتراكية تستحيل ايضا الاعمال العظيمة التي تتحقق في مجرى البناء الاشتراكي . فالاشتراكية العلمية تربي هذا الايمان الراسخ بحتمية الانتصار في العالم اجمع . كما أن هذا الايمان ينبثق من المعركة العميقة للقوانين العامة للتطور الاجتماعي ، هذه المعرفة التي شمخت بناء اشتراكيا عالميا في هذا العصر ، وامدت بالقوة القادرة جميع الشعوب التي تناضل لبناء حياتها الجديدة .

اجل ... تلكم حال الامم والشعوب في مجال توكيد ذاتها ، وتوطيد شخصيتها . تشبك الاكف بالاكف ، وتعد للقوة الباغية قوة واعية اعظم قوامها الامثل العنصر البشري الجديد . وتجبه النكبة بالتصميم والعمل الفعال.

وتلكم حالنا نحن ، حكومات وشعوبا عربية ، قبل العدوان الاسرائيلي وبعده . فلقد عانينا عبر تاريخنا المديد ، من كل المحن . غصنا في كل البحور . وتقلينا في كل القدور . وما علينا الان سوى ان نخرج من لجج الدماء طهارى بين الطاهرين ، ماسحين عن وجوهنا غبار الوقيعة والهزال . نازعين من صفوفنا عناصر الخديعة والنكال . ولنعلم بان العدو الجاثم على تخومنا لاشبه بالوباء الساري الذي لا يتفادى شره بغير استئصال جذوره الضاربة بعيدا في تربة الاحتكارات الاستعمارية ، عدوة الشعوب العربية ، وكل الشعوب .

ميشال سليمان

صدر حديثا عن

((دار العلم للملايين))

١ ــ المورد : قاموس « انكليزي ــ عربي »

تأليف الاستاذ منير البلعبكي .
فيه غنى عن مجموعة من القواميس .

٢ ــ التربية العامة : الكتاب الذي يجمع بين مبادىء التربية وفلسفتها وطرائقها في عرض شامل لم يسبق اليه .

تأليف الفيلسوف والمربي الفرنسي
« اوبير »
ترجمة الدكتور عبد الله عبد الدايم .

٣ ــ معنى النكبة مجددا
تأليف الدكتور قسطنطين زريق

يرصد ريع هذا الكتاب بكامله لمساعدة الطلاب الجامعيين من ابناء الضفة الغربية .

٤ ــ الفن والحياة : لمسات من روح فنان كبير بقلمه وريشته معا
تأليف مصطفى فروخ

٥ ــ كلمات : كتاب جديد للدكتور طه حسين

٦ ــ خواطر : كتاب جديد للدكتور طه حسين

٧ ــ من لغو الصيف الى جد الشتاء :
للدكتور طه حسين

٨ ــ فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية :
افضل ما ظهر في موضوعه من حيث الاصالة والعمق .

تأليف : لويس غرديه و ج. قنواتي
ترجمة : الشيخ الدكتور صبحي الصالح
والاب الدكتور فريد جبر .